دروس وعبر من قصة قارون

د/ عبد الباسط محمد أبو عيسى شكشم
جامعة الزاوية
كلية التربية / أبو عيسى

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا من يهديه الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم الصلاة والسلام على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وآله وصحبه، الذي تركنا على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وبعد: فإن القصص القرآني عبر، ودروس للمجتمع الإسلامي منها يستقي منهجه، ويقوّم معوجّه، وللناس في حياتهم مناهج، ومسالك فمنهم الأناني الذي يحب نفسه، وهمه إشباع حاجاته، وهذا الصنف من الناس مفتون بحب الدنيا، ومتاعها، وشهواتها، والتكالب على حطام الدنيا، ولا صلة له بمجتمعه، ونسى أن المال هو مال الله، وقارون يمثل هذا النوع من البشر.

وكان إفراد سورة (القصص) لقصة (موسى) - عليه السلام - أشبه بإفراد سورة (يوسف) - عليه السلام – لقصته، وأنزل الله عز وجل على نبيه هذه الآيات من سورة القصص تتحدث عن قارون وعمّا حلَّ به، وبماله لأن الجماعة المؤمنة المستضعفة بمكة تحتاج لتبين حقيقة مثل هذا النموذج، ومصيره لتصبر، وتقاوم به المستكبرين من عدوها.

والحث على تأمل واعتبار قصص القرآن لما فيها من دروس وعبر، ولعل قصة قارون تبين لنا أن المال يكون نقمة على صاحبه قال تعالى: { **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } [التغابن 15].

ألا وإن المرء المؤمن حينما يغشى معالم كتاب ربه، بقلب غير مقفول، لهو كمتعبد يغشى في مصلاه، ولربما أكرمه مولاه جراء تدبره، فلم يخطئ دمع عينه مجراه، يغدو في خمائل القصص، والعبر، ينزح من هذه وينهل من تلك، متأولاً قول ربه سبحانه: { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } [يوسف:111].

إن مثل آيات القصص لجديرة بحق أن نقف عند معانيها، وما ترمي إليه من دروس وعظات، ينبغي ألا تذهب هدراً عن ذوي الألباب، إذ ليس شيء أنفع للمرء من تدبر القرآن، وإطالة النظر في عواقب المثلات التي قد عفت، فيرى لعن اليهود ومسخهم، ويقرأ غرق

فرعون ذي الأوتاد، وخسف قارون، ويتأمل عذاب إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد.

وهذا قارون طغى وتجبر بماله، واعتقد أنه اكتسب المال بفكره، ولم تنفع معه النصيحة، فكانت العاقبة وخيمة، هي خسوفه هو، و ماله في باطن الأرض، فلم ينفعه ماله.

تمثل شخصية قارون نموذجاً للشخصية الكافرة الغنية التي بطرت النعمة، واستكبرت، واغترت بما بين يديها وهو نموذج من النماذج الخطيرة في المعسكر المعادي لما تلحقه مثل هذه الشخصية من أذى بمعسكر الإيمان وما فيه لأولئك الذي لم يتمكن الإيمان من قلوبهم لذلك نجد القرآن الكريم يعامل هذا النموذج بما يكافئ أذاه وخطورته من قسوة، وإهلاك.

وقد دعتني ضرورة البحث أن أقسمه إلى خمسة مطالب في المطلب الأول تفسير الآيات، وفي الثاني شخصية قارون، وفي الثالث الصور الجمالية في القصة، وفي الرابع تحليل الألفاظ، وفي الخامس استنباط المعاني.

التمهيد:

إن من أكبر الفتن في الحياة الدنيا هي: فتنة المال، وما أدراك ما المال؟ المال أذل أعناق الرحال، والمال غيَّر المبادئ، والمال أنطق الرويبضة في أمور العامة، والمال أفسد أمور الدين والدنيا إذا أخذ بغير حق، والله – سبحانه - قد أخبر بأن المال مما فطر الناس على محبته، وأنه شهوة من شهوات الدنيا قال تعالى: [**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**]. [الكهف 46] وقال: [**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً**]. [الفجر 20] وأخبر سبحانه وتعالى بأنه فتنة [**وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ**] [الأنفال 28].

والله سبحانه قرر حقيقة باقية، وسنة ماضية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي كذلك ميزان الله في الآخرة، وإن المال ليس بمقياس على علو منزلة الإنسان عند الله لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وهذا من عدل الله ورحمته بالأمة، قال تعالى: [**وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون**] [الأنفال37].

بل إن الله سبحانه بين أن المال قد يعطاه من لا خلاق لهم من الكفار، والطغاة والجبابرة، ولن يكون نافعاً لهم ولا رادعاً عن العذاب الذي يصيبهم، وهي رسالة لكل من بهرته الدنيا التي يعيش فيها، ومن قصة قارون وماله نستلهم الدروس والعظات والعبر، ومع هذا كله، فإن الإسلام يدعو إلى كسب المال واستثماره وتنميته بالطرق المشروعة، فدين الله كامل، ولم يأمر الله بالتخلص من المال، وإنما بإخراجه من محل الإيمان من القلب إلى مواضعه المادية ،وأن يكون في يد العبد لا في قلبه ،فإذا ما أحرقه لهيبه رماه حتى لا يفسد عليه إيمانه.

قال كعب بن عياض سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول (إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال) رواه الترمذي وصححه الألباني.

إن فتنة المال فتنة لكل مفتون إلا من عصم الله، وحب المال غريزة في نفس العبد، وهو زينة في هذه الدنيا فالمؤمن التَّقي سلك في سبيل الحصول على الرزق المسالك الطيبة،

والأسباب المأذون فيها شرعاً حتى يكون تناوله لهذا المال بالطريق الصحيح السليم؛ لأنه مفارق للدنيا وسيسأل في قبره عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه.

مشكلة البحث:

نظرا لأهمية المال، ودوره الفعال في حياة الإنسان، يطرح البحث قصة من القصص القرآني في جمع المال واكتنازه، فقصة قارون وخروجه بزينته وأمواله، وتبختره وتكبره، خسف الله به الأرض، ولما شاهد قومه ما نزل به من العذاب صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله فيما قسمه لهم وصاروا يرددون عبارات التحسر، والندم.

وقد أورد القرآن هذه القصة حتى يعتبر قوم سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام – إذ أنهم اغتروا بأموالهم، فبين لهم أن أموالهم بجانب مال قارون ليست شيئاً مذكوراً.

أهمية البحث:

1- تظهر أهمية البحث في أن المال هو عصب الحياة، وأن من أجله يسعى الإنسان، ويكد، فعليه أن يكتسبه من حلال، وأن يراعي فيه حق الغير.
2- توضح لنا قصة قارون، وما حدث له من خسف لنستلهم منها الدروس والعبر.
3- إن مجتمعنا يحتاج إلى أن نوقظ فيه الهمم؛ ليأخذ العظات من قصة قارون وما فعل به وبماله.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى توضيح الآتي:

1 - أن المال وسيلة وليس غاية، وإن الطغاة والجبابرة في مختلف العصور والأزمان هدفهم هو إذلال الشعوب وغايتهم هي كنز المال.

2 – إصلاح النفس البشرية، فالمؤمن بالله لابد عليه أن ينتبه إلى طاعة الله – عز وجل - وما أعده الله له من الأجر العظيم، فيسعى السعي الحثيث في طاعة الله، وتحصيل مرضاته، ويحذر من أن تلهفه، أو تشغله أمواله عن ذكر الله.

3 – رحمة بالعباد ينبههم خالقهم إلى ما عنده من الأجر العظيم لعلهم يتقون، لعلمه أن النفوس لكي تتجافى عن لهو المال لا بد لها في المقابل من شيء تحس أنه أعظم، وأبقى، وأكثر مما بين يديها، فإذا علمت النفوس ذلك قدمت على الأجر، وضحت في مقابله بالمال.

فروض البحث:

1 - إن الحرص على المال والاشتغال بجمعه عن طاعة الله سيؤدي إلى كثرة الحساب عليه وتعدد الحقوق فيه للفقراء والمستحقين.

2 - الحرص على المال يؤدي إلى تضييع حق الله في العبادة، والانشغال عن الواجبات كالصلاة في المساجد وحضور مجالس العلم.

3 – ترك العناية بتربية الأولاد، وإصلاح الأهل، فيتركهم هملاً، وعرضة للانحراف والضياع.

الدراسات السابقة:

عندما نطالع كتب التفسير نجد أن قصة قارون وماله مبثوثة في تلك الكتب، وعليه فإن الدراسات السابقة قد تكلمت عن قصة قارون في ضوء سورة القصص، ومن الأهمية مما كان أن نفرد قارون وماله بدراسة مستقلة لتتم الفائدة ويحصل النفع العميم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:- { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{78} فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{79} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ{80} فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ{81} وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{82} تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } .[سورة القصص 76-82]

المطلب الأول

تفسير الآيات

تتحدث هذه الآيات القرآنية من سورة القصص عن قصة قارون:

قال تعالى: { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** } حيث ذكر سبحانه وتعالى كلمة – من - يعني أنه من عامة الناس بل هو من أراذلهم, وبغيه عليهم بكثرة ماله[1] وفي الآيات الكريمة الوصايا الأربع:

1. وابتغ فيما آتَاكَ الله الدار الآخرة.
2. ولا تنس نصيبك من الدنيا.
3. وأحسن كما أحسن الله إليك.
4. ولا تبغ الفساد في الأرض.

التنبيه على أن المال من عند الله، " واتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوة ".

ولا تبغ الفساد في الأرض وهو منع الزكاة.

وآتيناه هذه حاجة ليست ملكه.

وأحسن كما أحسن الله إليك.

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى - عليه السلام -، وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة.

بعد أن بين الله - جل وعلا - نهاية طغيان الملك، والقوة أمام قوة الله تنتقل الآيات لتبين حقيقة أخرى وغرض آخر، وهو نهاية طغيان الكفر، ثُمَّ نهاية طغيان المال، وذلك من خلال قصة قارون مع قومه قال تعالى: { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** } فخرج على قومه بهيئة المتبختر، وهو يحسب أنه أوتي هذا المال، والعلم عن ذكاء، ودهاء، فانقسم قومه على فريقين فريق فتن فيه، وتمنوا مكانه.

{ **قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ** } وفريق آخر هم عباد الله الصالحين لم يهتزوا بهذه المظاهر الزائفة: { **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ** }.

وهنا تتدخل قوة الله، فتخسف به، وبداره الأرض، فلا يغني عنه ماله، وعلمه من الله شيئاً. وقصة قارون مرتبطة كلّ الارتباط بنهاية فرعون وطغيانه، فالقصتان تعبران عن استمرار الإنذار الإلهي.

التأكيد على أن الدنيا زائفة فانية، وأن الدار الباقية هي دار القرار (الجنة) جعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وأن العاقبة للمتقين[2].

البغي: { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** }.

الفرح بالنعمة الدنيوية: { **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** }.

نسيان الآخرة { **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** }

عدم الموازنة بين الدنيا والآخرة: { **وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا** } فإن الشخصية اليهودية تميل إلى عدم التوازن بين الدنيا والآخرة، وجعل جل الاهتمام بالدنيا، وعبادتهم للمال، والمظاهر الدنيوية.

عدم الإحسان: { **وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** }

الإفساد: { **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** }

الظن الكاذب بأن المال يؤتى عن طريق العلم الشخصي: { **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي** }

محبة الزينة: { **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ** }[3]
محبة الحياة الدنيا: { **قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** }
الطمع ،والشراهة، وحسد الآخرين: { **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ** }
الجهل العميق: { **إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** }
عدم نصرة بعضهم لبعض إذا وقع في أمر معضل: { **فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** }
حلول اللعنة الأبدية عليهم: { **وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ** }
الانهزامية ،وعدم الثبات على رأي: { **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** }
تقريرهم للحقائق بعد وقوعها رغم علمهم السابق بها: { **وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** }.

المطلب الثاني
شخصية قارون

إذا حللنا ما تقدم من مقومات الشخصية اليهودية في قصة قارون و قومه، نجد مثلاً أن صفة الاستضعاف وما تلاها من صفات هي صفات دائمة مما يوصلنا إلى نتيجة مهمة، وهي: أن الشخصية اليهودية في سورة القصص، مصورة في أحوال، وأشكال تجمع كل ما وصفهم به القرآن الكريم في كل آياته وسوره، وهو وجه آخر من وجوه الإعجاز القرآني[4].

نصحوه، وهم يعلمون محبته للمال، لم يقولوا له: اخرج من مالك وتصدق بمالك كله، فالمرء لا يقوى على ذلك، لكن قالوا له: { **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** } واعمل لنفسك، وفي نفس الوقت { **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** } أي: لم يكن معك مال، ولم تكن لك نباهة، ولا ذكر، وربنا - سبحانه وتعالى - قال: { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى** } أي: كان واحداً من قوم موسى لا نباهة له ،ولا ذكر له، ولا شأن له، فلما آتاه - الله عز وجل - المال بغى عليهم هكذا تكون بداية الكفر والبطر على النعم، وكثير من الناس هكذا، إن الإنسان الغني الذي ورث الغنى لا يستوي مع الذي طرأ عليه الغنى، فالذي يرث الغنى كابراً عن كابر لما ولد وجد أباه ثرياً أخذ نفس الصفة من أبيه، بخلاف الذي طرأ عليه الغنى، فإنه يلقن ابنه: يا بني كن ذئباً حتى لا تأكلك الذئاب؛ لأن الحياة عنده عبارة عن معركة، تراه يعمل عمل الذئب، فيغمض عيناً ويفتح الأخرى، فهو يقضان هاجع كما يقول الشاعر، فهو يعلم ابنه ليكون مثله، فالأب في العادة يكون مثالاً يحتذي به الابن، حتى لو كانت مماثلة الابن لأبيه في خلق ذميم.

فنقول: إن من تعلق بالدنيا مهما ذكرته، أو قلت له: التمس في ما آتاك الله الدار الآخرة، فلن ينفع، لكن ينبغي عليك أن تسلك معه السبل الصحيحة.

أولاً: أن تذكره بقول تعالى: { **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** }
وثانياً: أن ترقق قلبه بأن تذكره بحاله، وأن الله أحسن إليه، فمن هذا الباب عليه أن يعامل الناس بنفس الوفاء أحسن الله إليه، فيحسن إلى الناس، { **وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ** } فإن لم ينفع ذلك انتقل إلى التهديد، فتأمل درجات الدعوة: أولاً تقول له: أد حق الله وتمتع، { **وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** } ثم بعد ذلك تهدده: { **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ** } فإن الإنسان قد يرعوي إذا هدد.

فقارون خرج على قومه في زينته، قال تبارك وتعالى: { **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ** } فهؤلاء ليس معهم شيء؛ لكنهم قعدوا يتمنون، هذا الصنف لا معه مال ولا علم، ويقول هؤلاء الذين حالهم كحال الذي يخبط خبط عشواء ويركب الظلماء { **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** } هذا الرجل الذي يقولون: إنه لذو حظ عظيم، لما خسف ربنا سبحانه وتعالى بقارون، وداره الأرض قالوا: { **لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** } مع أنهم كانوا يتمنون أن يكونوا كقارون. أصحاب هذا الصنف أكثر الناس تقلباً.
فأصحاب الدنيا هم حيثما وجدوا مصلحتهم يذهبون، لذلك تجد الواحد منهم على استعداد بأن يغير موقفه مع تَغَيُّر المصلحة.
قالوا: { **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ** } ولما خسف الله بقارون الأرض قالوا: الحمد لله أننا لم نكن كقارون: { **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ** } وكأن المسألة عندهم شك فيها، أي: ليس أكيد أن الله ربنا - سبحانه وتعالى - يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر.

الرجل الذي آتاه الله مالاً، ولم يؤته علماً- شيخ هذه الطائفة قارون -، آتاه الله مالاً، ولم يؤته علماً، وكل أغنياء الأرض الآن رأس مالهم كله هي الفكة التي كانت مع قارون: { **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** } رجل غني جداً.

قارون يضرب به المثل في الغنى، والله تبارك وتعالى قد سجل قصته في آخر سورة القصص، قال - عز وجل -: { **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** }

المراد بالقوم بعض منهم ويكون المعني إما مجموعة من القوم، وهم أهل الموعظة، وإما سيدنا موسى – عليه السلام - أطلق عليه اسم القوم؛ لأن كلامه قدوة للقوم فكأنهم قالوا قوله، والمقصود بالفرح هنا الفرح المفرط المذموم المنهي عنه، وهو الناتج عن التعلق بمتاع الدنيا

ولذات النفس فحذف المتعلق بالفعل لدلالة المقام عليه، فالمعنى لا تفرح بلذات الدنيا معرضاً عن الدين، والعمل للآخرة كما بينه قوله: (**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ**)، والفرح إذا لم يعلق به شيء يصير بصاحبه إلى العجب، والبطر، وهذا معني قوله **إِنَّ** (**اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**) أي المفرطين في الفرح[5].

انظر إلى النصائح الجميلة! قالوا له: { **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** }

هنا نكتة لطيفة: كلمة: (ما)، في (فيما)، كان قارون معه مالاً، فقالوا له: { **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** } أي: ما معك سخره للدار الآخرة.

فـ (ما) هنا يقول العلماء: إنها من صيغ العموم، لكن المقصود بهذا العموم المال دون سواه؛ لأن الذي جاء به السياق هو المال، مع أن اللفظ جاء عاماً شاملاً لكل شيء.

ويقول العلماء: قد يكون الكلام على جهة العموم ومعناه على جهة الخصوص، كيف؟ مثلاً لفظة: (الناس) عموم، يدخل ضمنها اليهود، والنصارى، والمسلمين، والمجوس، وكل الناس، قال الله - تبارك وتعالى - : { **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** }[6]أي: كل الناس، وقد أكد ذلك بمؤكدين: كلمة (الناس) فيها الألف واللام إذا دخلت على النكرة تفيد العموم، وكلمة (جميعاً) في آخر الآية أفادت العموم أيضاً، فالمقصود بالناس هنا كل الخلق.

ونقرأ قوله تعالى: { **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ** }[7]، الناس هنا هم المسلمون فقط، مع أن هؤلاء ناس، وهؤلاء، فهذا لفظ عام لكن معناه الخصوص.

إذاً: ما الذي يجعلنا نعرف أن (ما) في هذه الآية تفيد الخصوص؟ قلنا: السياق؛ لأن السياق من المقيدات، أنت مثلاً لو جاءك ضيف: وقلت له: تفضل، أنت عزيز علي وكريم، تفضل، وعزمته على العشاء.

ماذا تفهم: هل أنا أهين أم أكرم؟ طبعا أُكرم.

لكن عندما نقرأ قول الله تعالى: { **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** }[8] إهانة أو إكرام؟ إهانة، دل على ذلك سياق الآيات.

إذاً كلام قوم موسى مع قارون هو بخصوص المال، و(ما) هنا، وإن كان ظاهرها العموم لكن المراد بها المال أي: ابتغ في مالك الدار الآخرة.

{ **وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } قال ابن كثير: " تناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال "[9] وهنا درس للدعاة إلى - الله عز وجل -: أن يراعي مقتضى الحال.

عندما تقول لغني: اخرج من كل مالك، دعه وراء ظهرك وتعال ورائي، هذه ليست طريقة دعوة؛ لأنه لن يخرج، لكن إذا قلت له: استمتع بالمباح، كل واشرب على مزاجك، طالما أنه حلال فلا بأس.

كذلك قارون عندما قال: { **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** } هذا بعبقريتي، وذكائي، أنا كنت أعلم أنني سأكون غنياً؛ لأنني ذكي أحسن التدبير والخطط: { **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** }،

اعتداده بنفسه، فماذا فعل الله به؟ { **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ** }

فنسب حصول هذا المال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحاً؟

{ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي** } فالجواب أن هذا الرجل أنكر أن يكون من الله ابتداءً؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبّب فهو مشرك[10].

المال الذي يكون هدفاً في حد ذاته موجب للعذاب، وذلك في قصة قارون إذ أن كنوزه المالية على كثرتها جعلته يفرح بما ليس له قط ونسي نصيبه من الآخرة، إذ جعل كل نصيبه من الدنيا، وابتعد عن الإحسان (وإعطاء المال بعض صور الإحسان) وابتغى الفساد بماله ثم زاد على ذلك بأن قال: { **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي** } ثم كان المال عنده، وسيلة للظهور بزينته المادية، والمعنوية، وفتنته لبعض ضعاف الإيمان ممن زعموا أن له حظاً عظيماً، ثم كان عاقبته أنه كما قال - عزَّ وجلَّ فيه -: { **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ** } وهذا أمر يشمل ما مضى، ومن سيأتي[11]

إن وعظ الدعاة يكون في كل حال، وخاصة عند ظهور الفساد بدليل خطاب بعض قوم قارون لقارون بعد أن طغى وتكبر وتجبر: { **لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77}** } فقد تضمنت هذه الآيات جملة من صفات (المَدْعُوّ) وهي:

1 - النهي عن الفرح.
2 - الأمر بابتغاء الآخرة.
3 - عدم نسيان نصيب الدعوة من الدنيا.
4 - لزوم الإحسان في المعاملة مع الله عزَّ وجلَّ، ومع الناس جميعاً.
5 - نبذ الفساد.

فهذه الصفات تلزم (المدعو) بعد أن يتحقق بها معه الداعي في دعوته.

إن من واجب الدعاة التحذير، والإنذار بدليل خطاب بعض قوم قارون لمن تمنوا مكانه، وهم ممن وصفوا في الآية بأنهم (أوتوا العلم) إذ قالوا: لهؤلاء الجهلة من بني إسرائيل: {**وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ**} تحقق الوعد الإلهي بالنصر بدليل عموم قوله تعالى: { **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ** }[12].

فتجد في مفهوم النص الطغيان المادي لتلك القرى التي بطرت، فاستكبرت وطغت، ويقول تعالى في الطغيان البشري والتكبر الروحي { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** }

ثم يقول تعالى في ذلك السياق: { **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** }

ثم يقول تعالى: { **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ** }

فتجد أن البغي القاروني كان بسبب تكبره، وطغيانه في الأرض بماله الذي هو رزق الله - عز وجل - والذي ليس له منه مقدار شعرة.

والنص القرآني واضح كل الوضوح في أن هذا التكبر لا عاقبة له إلا أن يخسف بالمتكبر، وبداره الأرض { **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْض** } ويذكر الله تعالى في نقض مفهومي التكبر، والطغيان على حد سواء في السورة نفسها { **تِلْكَ الدَّارُ الأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً** }، فتجد أن السياق القرآني يتواصل معك في استقرار نفسي يجعلك تنبذ في ذاتك (إن كان فيك ذرة من كبر، أو طغيان) وهذا من بدائع إعجاز النص القرآني في سورة القصص، وذلك لأن سياق بعض الآيات في سورة القصص - وخاصة ما ورد منها في شأن مادتي الطغيان (مفهوماً) والتكبر (لفظاً) على حد سواء - يجعل القارئ والسامع والمخاطب بها يستشعر في نفسه أن كلّ ذلك التكبر والطغيان مما يستحى منه لا مما يتفاخر به؛ لأن قوله تعالى فيها: { **تِلْكَ الدَّارُ الأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً** }[13].

كان قارون غاية في فقهه، وفهمه، وكان في النسب إلى موسى ابن عمه، فلما فاضت الدنيا عليه فاضت نفس علمه غير أن الذي فاته بما ناله أعلى وأغلى (فبغى) فقام قومه قّومه بزجر (لا تفرح) والقوا إليه نصائح (وابتغ ولا تنس وأحسن ولا تبغ)[14].

قوله تعالى : { **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إن مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ** } الأصل هو : لتنوء العصبة بالمفاتح، أي: لتنهض بها بجهد - وقال أبو عبيد هو كقولهم: عرضت الناقة على الحوض، وأصله عرضت الحوض على الناقة، وقيل: يجوز أن لا يكون هناك قلب؛ لأن المفاتح تنهض ملابسة للعصبة إذا نهضت العصبة بها.

وقوله { **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** } يقول تعالى ذكره: وآتينا قارون من كنوز الأموال ما إن مفاتحه، وهي جمع مفتاح، وهو الذي يفتح به الأبواب.

وقال بعضهم: عنى بالمفاتح في هذا الموضع: الخزائن لِتُثْقِل العصبة.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[15].

وهنا نقف لنقارن طغيان قارون وتجبره بطغيان طاغوت العصر المقبور القذافي حيث إنه تكبر، وتجبر وأذاق شعبه صنوف العذاب على مدى أكثر من اثنتين وأربعين سنة قتل وسجن، وأخذ الأموال من أصحابها، وحارب السنة، ونشر البدعة، وكانت نهايته كنهاية قارون مات على يد الثوار مات ذليلاً مهاناً، وأصبح درساً من دروس العبر، مثله مثل قارون، ومثل باقي الطغاة.

المطلب الثالث
الصور الجمالية في القصة

أولا: المبالغة:

وذلك في وصف كنوز قارون حيث ذكرها جمعاً الكنوز، والمفاتح، والنوء، والعصبة، وأولي القوة:

وهذه المبالغة في القرآن من أحسن المبالغات، وأغربها عند الحذاق، وهي: أن يتقصى جميع ما يدل على الكثرة، وتعدد ما يتعلق بما يملكه.

ثانيا: بلاغة التعليل:

وذلك في قوله: { **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إن اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** }. حسن تعليل جميل بجملة { **إن اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** }

المعنى العام:

{ **إن قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** }:

{ **فَبَغَى عَلَيْهِمْ** } فيه وجوه :

1- إنه بغى بسبب ماله، وبغيه إنه استخف بالفقراء، ولم يرع لهم حق الإيمان، ولا عظمهم مع كثرة أمواله .
2- إنه من الظلم، قيل: مَلَّكَهُ فرعون على بني إسرائيل فظلمهم.
3- بغى عليهم، أي: طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده[16].

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قول قوم قارون له: لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك، والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة، بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا وقوله { **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } يقول: ولا تترك نصيبك وحظك من الدنيا، أن تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيك غداً من عقاب الله.

{ **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** } يقول: لا تترك أن تعمل لله في الدنيا.

{ **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } قال: أن تعمل فيها لآخرتك.

{ **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } قال: إن قوماً يضعونها على غير موضعها، ولا تنس نصيبك من الدنيا: تعمل فيها بطاعة الله.

{ **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } قال: العمل بطاعته.

مجاهد، قال: تعمل في دنياك لآخرتك.

عن مجاهد، قوله { **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } قال: العمل فيها بطاعة الله[17].

ودلت الآيات كذلك على ذم الله للبطر، والفرح بالدنيا وزهوتها، والاغترار بالمال إثر نصيحة قوم قارون له، قال الآلوسي : " والفرح بالدنيا لذاتها مذموم ؛لأنه نتيجة حبها

والرضا بها والذهول عن ذهابها، فإن العلم بان ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح حتماً"[18]

ولذلك قال تعالى: { **لِكَيْلا تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** }[19]، وعلل سبحانه النهي هاهنا بكون الفرح مانعاً من محبته عز وجل، فقال تعالى: { **إن اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** }، فهو دليل على أن الفرح بالدنيا مذموم شرعاً، وإنما قلنا إن الفرح بها لذاتها مذموم ؛لأن الفرح بها لكونها وسيلة إلى أمر من أمور الآخرة غير مذموم.

وليس المقصود هو النهي عن الفرح مطلقاً، فالفرح والحزن فطرة فطر الناس عليها، فالمؤمن يفرح بما يفرحه، ويشكر الله على ذلك، وإذا أصابه ما يحزنه يصبر، فالفرح المنهي عنه هو فرح البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، ولما في هذا الفرح من تفضيل الدنيا على الآخرة التي هي دار الخلود"[20].

المطلب الرابع

تحليل الألفاظ

1- تجبر قارون واستكباره - وصف قارون وخروجه في زينته, ومباهاته لأهل عصره بما أوتيه من حطام الدنيا، وزينتها، وغبطة الجاهلين له المريدين منها مثل إرادته, وتأسفهم على مثل حاله ثم دل على فضل العلماء وإصابتهم الصواب بعزوف أنفسهم عن ملكه، وزينته، ورضاهم بما فهموا عن الله، وتصديقهم له فيما وعد من جزيل ثوابه وحسن مآبه لمن آمن بذلك ورضي به فقال عز وجل: { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** }[21].

{ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَ الصَّابِرُونَ** }.

وقوله: { **أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** } يقول جل ثناؤه: أو لم يعلم قارون حين زعم أنه أوتي الكنوز لفضل علم عنده علمته أنا منه، فاستحقّ بذلك أن يُؤتى ما أُوتي من الكنوز، أن الله قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشاً، وأكثر جمعاً للأموال; ولو كان الله يؤتي الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده، ولرضاه عنه، لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالاً؛ لأن من كان الله عنه راضياً، فمحال أن يهلكه الله، وهو عنه راضٍ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطاً[22].

2- المناسب - لما كان ترك الفرح في قوله تعالى: { **إن اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** } سبباً للزهد، وهو سبب للقرب إلى الله، كأنه قيل: (وازهد فيه إن الله يحب الزاهدين)، فقال تعالى: { **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** }.

ومن الواضح أن كفره سول له البقاء على ذلك، والعياذ بالله تعالى، فخسف الله به وبداره الأرض جزاءً وفاقاً لكفره، وتكبره على ما أخبرنا عز وجل في سورة القصص في الآيات التي نحللها هنا.

1- { **وَابْتَغِ** }:

بَغَى الشيءَ ما كان خيراً أو شراً يَبغِيه بُغاءٍ وبُغىً: طَلَبَه، وبغى ضالّته وكذلك كل طَلَبة، بُغاءً بالضم والمد وبُغايةً.

"وقال اللحياني: بَغَى الرجلُ الخير والشر، وكلّ ما يطلبه بُغاءً وبِغيَة وبِغًى مقصور والبُغْيَةُ: الحاجة. وقال الأصمعي: بَغَى الرجلُ حاجته أو ضالته يَبغْيها بُغاءً وبُغايةً إذا طلبها"[23].

2- { **وَلاَ تَنسَ** } قال ابن عطية: " إن قارون خرج على قومه، وقد أظهر قدرته من الملابس، والمراكب وزينته الدنيا، قال جابر، ومجاهد: خرج في ثياب حمر[24].

وقال ابن زيد: خرج هو وجملته في ثياب معصفرة، وقيل: في ثياب الأرجوان[25]. وقيل غير هذا، وأكثر المفسرين في تحديد زينة قارون وتعينها بما لا صحة له.

{ **قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** }:

أي: الذين معه تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم ليس لهم إرادة في سواها.

{ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أوتِيَ قَارُونُ** }

من الدنيا، ومتاعها وزهرتها.

{ **إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** } وصدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم، وإنه ليس وراء الدنيا دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعيم بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم، وأن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطالبها لمن أدنى الهمم وأسفلها، وليس لها أدنى صعد إلى المرادات العالية والمطالب الغالية[26].

{ **وَقَالَ الَّذِينَ آوتُوا الْعِلْمَ** } قال أبو السعود: " أي بأحوال الدنيا، وأكثر المفسرين كما ينبغي، وإنما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهاً على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراض عن الأولى والإقبال على الثانية حتماً، وأن تمني المتمنين إلا لعدم علمهم بها كما ينبغي[3]، { **وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** }: قال الخازن: " أي ما عند الله من الثواب، والخير لمن آمن، وصدق بتوحيد الله، وعمل صالحاً خيرٌ مما أوتي قارون في الدنيا"[27]

{ **وَلا يُلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابِرُون** } قال ابن عطية: " أي يُمكن فيها ويخولها إلا الصابر على طاعة الله وعن شهوات نفسه، وهذا هو جماع الخيرُ كله[28].

المطلب الخامس

استنباط المعاني

أولاً: اعتدال المنهج الرباني فيما يخص الإنسان وعلاقته بالدنيا والآخرة فقال تعالى: {**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ**}. وقال: { **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** }.

ونلاحظ أن الله - عز وعلا - أكد أولاً على الآخرة، وأن يوظف الإنسان هذا المال الذي هو مال الله أصلاً في طاعة الله، والتقرب إليه بأنواع القربات، وأن لا يستخدم هذا المال فيما لا يحل له، وهذا المنهج الرباني ينبغي أن تعمل عليه الدول الإسلامية في توظيف ثروات، وأموال المسلمين ومواردهم التي أنعم الله بها عليهم في طاعة الله، وخدمة الإنسانية[29].

ثانياً: وجهت الآيات من خلال قصة قارون الأغنياء على مساعدة الفقراء عيال الله، فقال تعالى حكاية عن نصيحة المؤمنين لقارون { **وَأحسن كَمَا أحسن اللَّهُ إِلَيْكَ** }. قال ابن كثير: " أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك[30]، فالمال هو مال الله، وإحسان منه اختص به بعض عباده، فليقابل من اختصّه الله بنعمته بالإحسان إلى الفقراء. قال تعالى: {**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**}.

ثالثا: كثرة المال قد توقع صاحبه في البغي، والبطر، فإن المال فتنة، قال تعالى: { **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** }[31] فيمتحن الله بهذا المال عباده، ووجه الفتنة في المال أنه يوقع صاحبه في الشحّ والبخل، وعدم القيام بشكره بإخراج حق الله فيه، كما أن كثرة المال تسهل عليه سبل الترف والطغيان وبطر النعمة، فيصير من المترفين الطاغين البطرين.

وهذا ما حصل فعلاً مع قارون، فقد أطغاه المال، فبغى على قومه، وادعى أنه حصل على هذا المال بعلمه: { **قَالَ إِنَّمَا آوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** }، وليس هذا يعني أن على المسلم أن يبتعد عن المال مخافة أن يطغيه، ولا بأس من أن يمتلك المسلم المال إذا أطاع به الله[32] فالمسلم الحقيقي هو من ينبغي أن يكون لديه المال، فهو أمين على ما استخلفه الله فيه، يساعد الفقراء.

رابعاً: ودلت الآيات كذلك على أن على الدعاة واجب النصح لأهل الأموال الذين نسوا الله وشغلتهم أموالهم عن طاعته، فشابه حالهم حال قارون، وتذكيرهم لما جرى لقارون: { **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77}** }

{ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ** }:

قال ابن عاشور في ذلك: " دلت الفاء على تعقيب ساعة خروج قارون في ازدهائه، وما جرى فيها من تمني قومه أن يكونوا مثله، والخسف انقلاب بعض ظاهر إلى باطنها، والباء

في قوله: { **فَخَسَفْنَا بِهِ** } باء المصاحبة، أي: خسفنا الأرض مصاحبة له ولداره، فهو وداره مخسوفان مع الأرض التي هو عليها "[33].

وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس من الدنيا، وغناه، وكثرة ماله، وما بسط له منها بالأمس يعني قبل أن ينزل به ما أنزل من سخط الله وعقابه، يقولون ويكأن الله.

وقفوا يحمدون الله إن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما أتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة، وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب، ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف.

{ **لَوْلا أن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** }: قال ابن كثير: " لولا لطف الله بنا، وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به؛ لأنا وددنا أن نكون مثله "[34].

{ **وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** }: وروى ابن أبي حاتم عن قتادة يقول: أو لا يعلم أنه لا يفلح الكافرون[35].

وفي رواية أخرى عن قتادة بلفظ أو لا يرى أنه لا يفلح الكافرون.

{ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** }: قال الرازي " فتعظيم لها، وتفخيم لشأنها، يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتها وميل القلب إليها، فعن علي- رضي الله عنه - (إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها[36].

أولا: لقد أخذ الله قارون وهو في أوج انتعاشه، وغروره، وتكبره، وفرحه، وبطره، وقصمه قصماً، وهو في سكرته، وزينته خسف به، وبداره الأرض، انشقت الأرض، وابتلعته، ابتلعت أمواله وكنوزه، وابتلعت خزائنه، ومفاتحه، وابتلعت داره، وملكه، ولم تنفعه أمواله وكنوزه؛ لأنها لم تمنع عنه عذاب الله، ولم ينصره المتجمعون حوله المنتفعون بأمواله، ولم يدفعوا عنه عذاب الله.

فيمكن للدعاة أن يوظفوا هذه القصة لنصح أصحاب الأموال المتبخترين بأموالهم، وتذكيرهم بعقاب الله.

ثانياً: قد يعجل العقاب على مستحقيه في الدنيا.

الأصل في العقاب لمستحقيه أنه يكون في الآخرة، ولكن قد يعجّله الله لمستحقيه في الدنيا مع ما ينتظره من عقاب الآخرة، كما عجَّل الله عقاب قارون في الدنيا حيث خسف به وبداره الأرض، وهذا التعجيل إنذار وتحذير قد ينتفع به بعض العصاة، فينزجروا عن معصيتهم، وينتفع به ضعاف الإيمان حيث يتقوى إيمانهم.

ولكن لا يعني هذا أن كل عاص لله ينال عقابه في الدنيا، فإن شاء الله عجّل للعصاة العذاب في الدنيا، وإن شاء أَخَّرَ لهم العقاب إلى يوم القيامة.

ثالثاً: الرجوع عن الخطأ فضيلة.

ويتضح هذا من خلال رجوع الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون من المال { **وَأصبح الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** }[37].

ففي سورة القصص نجد أن قوله تعالى: { **إِنَّ قَارُونَ كَانَ من قَوْمِ موسى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** } يدلّ على أن اليهود الذين هم (من قوم موسى) كانوا ولا زالوا أهل بغي، ثُمَّ نجد قوله تعالى: { **وَآتَيْنَاهُ من الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** }، فنلاحظ أن في عصرنا هذا قد كثرت البنوك الرأسمالية حتَّى صار من الصعب إحصاؤها أو عدها أو ذكر أسمائها، وأن ما فيها من أموال يغطي الأرض مرات ومرات، ونجد أن قوله تعالى: { **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77}** }، يحمل في طياته كل سمات العولمة الحديثة في وعظ قوم موسى من المؤمنين لقارون.

نجد من سمات العولمة في قصة قارون:

- الفرح الاحتفالي المبالغ فيه.
- نسيان الآخرة.
- جعل الدنيا النصيب كله.
- عدم الإحسان.
- الفساد في الأرض.

ونجد كذلك في سورة القصص مقومات العولمة العلمية التي هي في عصرنا ثورة المعلومات، والاتصالات والتقنيات في جواب قارون لقومه: { **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** }.

ونجد رياء العولمة، وتبخترها، وتكبرها في مثل ما نجده في صفة قارون في سورة القصص في قوله تعالى: { **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ** }[38]

تأمل في حال قارون: لما أعطاه الله المال وأعطاه { **... مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** } استكبر وعلا، وزعم بأن الله يحبه ويرضى عنه، وإلا لما أعطاه. فبماذا عاقبه الله بعد ذلك؟ سوء استغلال الأموال؛ يؤدي إلى الهلاك.

التبذير والإسراف يؤدي إلى الهلاك.. إنفاق الأموال في مجالات الحرام يؤدي إلى الخراب، والهلاك؛ ولذلك يقول نبي من الأنبياء لقومه موبخًا: { **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** }[39]

أما الفرح المنهي عنه، فهو فرح الكبر، والفرح هذا هو المنهي عنه كما قال - عز وجل - في قصة قارون: { **لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** }

هذا فرح الكبر والتعالي على الناس والتعاظم، وهذا هو الذي ينهى عنه[40].

ما ذكر في القرآن من قصة قارون مع قومه تتمثل في هذه الآيات قصة متكاملة العناصر؛ فزمن القصص - فترة رسالة موسى – عليه السلام -. والأماكن التي شهدت الدعوة مكانها،

ووقائع القصة - وإن انتهت زمناً - فهي مستمرة حياة وإيحاءً، مادام النموذج الذي عرضت له القصة قائماً في عالم الناس، وقارون يقوم بدور البطولة بين شخصياتها المتمثلة بقومه عموماً، ثم يتحدد هذا العموم بفئتين:

الأولى: الدنيويون.

الثانية: أولو العلم.

وموضوع الصراع هو المال - مصدراً وهدفاً ومصرفاً - وتبدأ القصة معرّفة بقارون هذه الشخصية البائسة التي تعايش ربيع الزمن - وجود النبوة - ولكنها في شغل عنها بالمال جمعاً وكنزاً، ثم تفتح الآيات أعيننا على الأخطار التي تنتج عن رأسمالية فرد، فما تكون عليه هذه المخاطر إذا كانت هذه الرأسمالية نظام حياة وأسلوب حكم؟!.

وأولى هذه المخاطر الظلم: [**فَبَغَى عَلَيْهِمْ**] فالمُتيّم بالمال، والصبّ بجمعه لا يهتم إلا بما يزيد هذا المال رقماً دون مبالاة بظلم مؤلم أو بغي مؤذٍ، وفي ظل هذا الوضع تهان إنسانية الإنسان، ويكون التعامل معه كالتعامل مع الأشياء(41).

الخطر الثاني: الفرح: { **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** }، ويبدو أنه قد لازمه حتى صار خُلقاً له، أو كما يقول أهل النحو (صفة مشبّهة أو صيغة مبالغة) فبلغ به حد الأثرة، والبطر، كما يقول القرطبي أو بلغ الحد الذي يُنسي المنعم بالمال(42).

والخطر الثالث: التوجه الكلي إلى الدنيا وحدها، وهذا ما يستنبط بمفهوم المخالفة من قوله تعالى: { **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** } وكما لا يظن أن ذلك دعوة إلى مقاطعة الدنيا أتبع (والله أعلم) لقوله: { **ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } وابتغاء وجه الله بالعمل محض الإيمان، فلا يذل المرء للمخلوقين، أو يصبح تحت رحمة أهوائهم إذا اتخذ وجوههم قبلة تحقيقاً لتوحد حب الدنيا في قلبه.

وبعد إشباع شهوة التسلط القاروني بالبغي، وإتراعها بالفرح بعد ذلك تمضي بنا الآيات إلى الخطر الرابع وهو الفساد في الأرض: { **وَلا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ** }، وكلمة الفساد ينطوي في أحشائها - وينضوي تحت راياتها - شرور شتى، وخبائث عدة؛ لأن القارونية لا مكان في معجمها المادي للأخلاق، بل لا ترى بأساً أن يكون في مقتل الأخلاق دخل مدار الربح كما في عوائد الربا، والفوائد كما في دخول الميسر، والخمر، والدخان ... إلخ.

والأخطار الأربعة السابقة نتيجة منطقية لرأسمالية قارون التي تدين بالحتمية المادية - وهذه نقطة تلاقٍ مع الشيوعية - التي تجحد قدرة الله في الإعطاء والمنع، والفقر والغنى، وترد ذلك إلى سلطان العقل، وثمرة العمل، وتبجح قارون: { **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** } يمثل الأبوة الروحية لكل منزع مادي، فهو كما قال أحد المفسرين: تَنَفَّجَ بالعلم وتعظم به.

ومادام قارون يعتقد ألا فضل لله في إيجاد هذا المال، فليس له - بالتالي - حكم في مصاريفه، وإنفاقه. ولكن الآيات ردت على المادية القارونية بأن المادية التاريخية لم تعصم أهلها - بالرغم مما في يدها من علم، ومال -: { **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعاً** } وما على القوارين إلا التأمل في مصائر الثراء،

وفعائل المال بأصحابه؛ (إذ لو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم) كما يقول القرطبي[43].

وكأن هذه القارونية قد أخذت على نفسها الميثاق ألا تُبقي عيباً من عيوب الثراء الذي لم يؤسس على تقوى إلا وكشفته، هاهي الآيات تعرض لنا المنظر الأخير للإفلاس القيمي عند قارون الذي لم يجد ما يدلل به على حضوره ثرياً إلا خروجه في زينته (كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد) التي لم يكن الحاضر فيها منه إلا مظاهرها المادية بعد أن فارقنا إنسانيته، أو فارقتنا في سعير المظالم، وسعار الشهوات، وسكرة الفرح.

ولقد نقلت الآيات قارون من الجريمة الفردية إلى الجريمة الاجتماعية، أو بلغة الأدب - من الشخص إلى المصطلح ومن الحدث إلى الرمز لتصبح القارونية عباءة لكل قارون معاصر، أو ثري جَحود.

لم يكد قارون يفرغ من عرض ثروته، واستعراض زينته إلا، وقد أشعل في قلوب الدنيويين مشاعر التلهف وشعائر التأسف ألا يكون لهم مثل هذه الثروة: { **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ** }؛ فجاءت إغاثة اللهفان - شأنها في كل زمان ومكان - من أهل العلم الذين حذروا من خطورة النظرة السطحية للأمور، والتي تريد الدنيا للدنيا، ثم لفت أهل العلم الأنظار إلى { **ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ** }، فذلكما الأمران هما المطلوبان والمحبوبان ثواب الله والإيمان به. وفي ذلك تنبيه للدنيويين على مدار التاريخ - وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - أن الثروة قد تدلف فجأة، ولكن ترويض النفس على الإيمان، والعمل الصالح يُلَقَّاهَا إلاَّ وما أن يُنهي أهل العلم كلامهم؛ حتى تغيّب الأرض قارون في ظلماتها - والعطف بالفاء - فَخَسَفْنَا يدل على سرعة الأخذ، والعقوبة بالخسف مناسبة لسخف المعتقد، وهكذا أصبح هذا الثراء بالرشاء أجدر.

وفاجعة النهاية لا تقل في غناها المعنوي عن مأساة البداية، فهذه الثروة الهائلة تغور في أعماق البسيطة بثوانٍ كأن لم تكن: {**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ والأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنظَرِينَ**}[44].

وإذا جاء أمر فإنه يترك كل القوى اللائذة بأهل المال رغبة أو رهبة - عاجزة عن أي دور: { **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ومَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ** } وبقدر ما كان الانتقام فاجعاً لقارون كان مفاجئاً للدنيويين فقد انتزعتهم النهاية من زيف أحلامهم وسكرة مشاعرهم لتوقفهم على الأخذ الأليم؛ فيصرخون [وَيْ] لتبصر البصائر ما عجزت عنه النواظر، ويدركون ألا علاقة بين الهداية والثراء؛ فالله: { **يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ويَقْدِرُ** }. كما يعترفون بفضل الله عليهم لتدارك رحمته - إياهم - بنصح أولي العلم: { **لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** }، كما يخرجون بتجربة ناجحة عن مستقبل الثراء الكافر: {**وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ**}، والتعبير بالمضارع { **لا يُفْلِحُ** } يفيد ديمومة الحكم ما وُجدت أطراف القضية[45].

فقارون بعد أن كان من قوم موسى - عليه السلام - طغى وتجبر بسبب ما آتاه الله من المال: **" إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً".**

فماذا كانت النتيجة، وبم ختم له؟

"فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين"، فهو يجلجل فيها - أي في الأرض- إلى يوم القيامة، لم يصل قعرها، كما أخبر الصادق الأمين(46).

فما أصاب قارون لا شك أنه مصيبٌ أمثاله من عبدة الدرهم، والدينار، والدولار، التعساء، الأشقياء، الذين استعملوا نعم الله فيما يغضب الله، ويفسد خَلقه، إن لم يتوبوا عن غيهم، ويرجعوا إلى رشدهم، ويكفروا عن قبيح ما صنعوا، فإن تابوا وأنابوا وأقلعوا فإن باب التوبة مفتوح، والتوبة تجب ما قبلها إذا تمت قبل أن تلتف الساقُ بالساق، وتجتمع على المرء حسرتا الموت والفوت(47).

قد أصبح هم كثير منا جمع المال بأي طريقة، والحصول عليه بأي وسيلة، غير منظور لحلها أو حرمتها، وأضحى لسان حال كثير منا: الحلال ما حل في أيدينا، والحرام ما حرمنا الوصول إليه، وصدق فينا قول الله عز وجل: **"وتأكلون التراث أكلاً لماً. وتحبون المال حباً جماً"**، واقتدى جلنا بما قاله قارون: **"إنما أوتيته على علم عندي".**

لهذا فقد حلت المحقة محل البركة، والقسوة محل الرحمة والشفقة، وكثرت الخصومات والنزاعات، وتقطعت الأرحام، وحرم المجتمع الأمن، والأمان، وكاد أن يكون البيع الذي هو من المكاسب الطيبة، والوسائل المشروعة من الخبائث لما دخله وصاحبه من الغش، والكذب، والحلف الكاذب، والحيل المحرمة، ونحوها.

لم يكتف سلفنا الصالح بالامتناع عن الحرام، بل تعدى الأمر عندهم أن امتنعوا عن أخذ، وأكل كل ما فيه أدنى شبهة(48).

وأبلغُ ما يعظ كتابُ الله - عز وجل - ، فقد بين الله أنه لم يجعل للمتكبرين نصيباً في الآخرة فقال: { **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** }.

أما قوله: { **فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ** } فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها، وليس في القرآن إلا هذا القدر، إلا أن الناس ذكروا وجوهاً مختلفة في كيفية تلك الزينة، قال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول، وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى، والثياب الحمر على البغال الشهب، وقال بعضهم: بل خرج في تسعين ألفاً هكذا، وقال آخرون: بل على ثلثمائة، والأولى

ترك هذه التقريرات؛ لأنها متعارضة، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا { **يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونْ** } من هذه الأمور، والأموال، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار، وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا، ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم؛ لأن للثواب منافع عظيمة، وخالصة عن شوائب المضار، ودائمة وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث، قال صاحب (الكشاف): ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر، والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى[49].

أما قوله: { **وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** } فقال المفسرون: لا يوفق لها والضمير في يلقاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان أحدهما: إلى ما دل عليه قوله: { **آمن وَعَمِلَ صَالِحاً** } يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون والثاني: قال الزجاج: يعني، ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات، وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار[50].

وأما قوله: { **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض** } فإنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره، والفاء تدل على ذلك؛ لأن الفاء تشعر بالعلية.

اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا، ومخالفة موسى - عليه السلام -، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله تعالى، وقسمته، وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله.

أما قوله: { **وَيْكَأَنَّ الله** } فاعلم أن (وي) كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ، وإظهار التندم، فلما قالوا: { **يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونْ** } ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا: وي ثم قالوا: كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته، وحكمته لا لكرامته عليه، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة، قال سيبويه: سألت الخليل عن هذا الحرف فقال إن وي مفصولة من كأن، وأن القوم تنبهوا، وقالوا: متندمين على ما سلف منهم وي. وذكر الفراء وجهين أحدهما: أن المعنى ويلك فحذف اللام، وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام، وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس. الثاني: وي منفصلة من كأن، وهو للتعجب يقول الرجل لغيره: وي أما ترى ما بين يديك فقال الله: وي ثم استأنف كأن الله يبسط، فالله تعالى إنما ذكرها تعجيباً لخلقه، قال الواحدي: وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه: لكتبوها منفصلة، وأجاب الأولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه، ثم قالوا: { **لَوْلا أَن مَّنَّ الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون** } وهذا تأكيد لما قبله[51].

أما قوله: { **تِلْكَ الدار الآخرة** } فتعظيم لها، وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما،

وعن علي - عليه السلام -: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها[52].

ولهذين الصنفين من الدعاة تاريخ قديم من عهد موسى - عليه السلام - إلى اليوم، تعاين حالة هذين الصنفين كلما قرأت سورة القصص[53]:

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله: { **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ** } فإن الدار تكون ظاهرة في البنيان، وفي ملك صاحبه، وهو الأقرب، وقد تكون بعد ذلك في التيه، وبهذا المعنى تكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام[54].

الخاتمة

ويتضح من القرآن إن قارون كان من قوم موسى الذين كان فرعون يستعبدهم، ويستذلهم، وقارون يهودي يقف مع فرعون، وفي خندقه فكيف يكون هذا؟!

القرآن في تصويره الواقعي الدقيق لحركة الرموز، وعلاقتها يكشف من خلال قارون اليهودي عن العلاقات الحقيقية القائمة على أرض الواقع، وهي هنا العلاقة بين المال والسلطة، وهي علاقة جدلية مستمرة فقارون اليهودي يملك المال، والسلطة تحتاج المال، والمال يحتاج السلطة التي تحميه لذلك يقف قارون في صف فرعون ضد قومه ويقربه فرعون، ولا يتعرض له بأذى.

فقصة قارون نلخص منها حقائق أربعة، ومشاهد أربعة:

أولا الحقائق:

1- إن سلطان المال والعلم الدنيوي يؤديان إلي البوار إذا اقترنا بالبغي، والاستكبار، وجحود نعمة الله فقارون كان غنيا يفوق حد الخيال، وله معرفة بوسائل الكسب، ولكنه لم يبتغ الدار الآخرة فيما أتاه الله، وبغى واستكبر وتنكر لنعمة الله فكانت نتيجته المفجعة الخسف.
2- إن قيمة المال مهما كانت ضخمة، فهي هينة أمام قيمة الإيمان والعمل الصالح، وعليه كانت كلمة أولو العلم الحق، وواجهوا بها أولئك الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون.
3- إن المال إنما يبتغي به وجه الله، والدار الآخرة، ولا ينسى المرء نصيبه من الدنيا.

إن الدار الآخرة يجعلها ربنا للذين لا يريدون علواً، ولا فساداً، فإن جاءهم المال ردوا الفضل إلى المنعم، ولم يتكبروا على عباد الله وجعلوه في سبيل الخير، والصلاح، ومرضاة الله.

ثانيا المشاهد:

1- تجد قارون غنى غناً فاحشاً، وإنه فرح فرحاً أخرجه عن دائرة الاعتدال إلى البغي والطغيان وينطلق صوت الإيمان من قومه يعلن المنهج الصحيح قالوا له: لا تفرح الفرح الذي يسئ للآخرين بزهوك عليهم بالمال ... ليكن مقصدك الدار الآخرة، ووظف هذا المال في الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا...
2- ترى قارون يخرج في زينته على قومه في غاية الترف، ويحيا حياة البذخ، ويلقاه فريقان من قومه فريق يريد الحياة الدنيا فيعجبون به، ويتمنون أن يكونوا مثله، وفريق ممن أوتوا العلم والإيمان، فينكرون على أولئك المبهورين، ويلاحظ أن الفريقين نموذجان يتكرران في كل عصر وزمان.
3- ترى القدرة الإلهية تتدخل لتضع حدا للفتنة بالخسف { **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ** } وهكذا ذهبت زينته، وذهبت الفتنة، وتحطم الغرور، والكبرياء، وكان ذلك رحمة للناس الضعفاء، وانتصاراً للفقراء، وترى الفريق الذي يتمنى مكانه يفتح فاه من التعجب، وتزيغ نظراته من الدهشة قال تعالى: { **وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**}.
4- تجد التعقيب الخالد الآتي: { **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** }

وكأن هذه القصة تنادي المسلم الذي يرغب في النجاة أيها المسلم لا يجوز لك أن تعلق قلبك إلا بخالقك احذر من أن تكون الدنيا أكبر همك، ومبلغ علمك ما المال إلا عرض زائل أيها المسلم علق قلبك بمن يأتي بالمال ويذهب به، ولا يعني أن تنسى نصيبك من الدنيا، ولك أن تستمتع بطيبات الحياة باعتدال، وضمن دائرة الشرع ويستفاد من قصة قارون أن لكل ظالم نهاية، وأن الطغاة والجبابرة مهما ظلموا، ومهما فعلوا لهم يوم في الدنيا قبل الآخرة، فهذا

القذافي، وقبله قارون أصبحوا في خبر كان لم ينفعهم مالهم، ولا سلطانهم، فهم الآن في مهب الريح، ولكن علينا أن نأخذ من قصصهم عبرة ودروس؛ لأن الدنيا قصيرة والعمر أقصر، والإنسان يحتاج دائما من ينبهه، ويوقظه من غفلته، فهذا قارون خرج بزينته على قومه متبختراً متكبراً حتى أن قومه بهروا به، وتمنوا أن يكون لهم ما لقارون، فخسف الله به وبماله الأرض نظراً لتجبره وتعاليه، وهذا المقبور تعالى على الله، وعلى العباد، وادعى أنه ملك ملوك أفريقيا، وأنه المخلص الوحيد للبشرية بفكره التافه واطرهاته، ومغالطاته المكتوبة في كتابه المسمى بالكتاب الأخضر، وظن بنفسه أنه ناج من أي مكروه ولكن قدرة الله أكبر منه، ومن طغاة العالم، فحدث ما حدث، وأخرج من سردابه ومات شر ميتة، فأصبح درساً وعبرة لمن يعتبر، فعلينا جميعاً نحن المسلمين أن نأخذ الدروس من قصة قارون، والمقبور، وغيرهم من الظلمة، والجبابرة لتكون لنا وقفات هامة في الحياة.

الهوامش

1) ينظر: تفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر دار الفكر بيروت ط/ الأولى ج19 ص616.
2) ينظر: سورة القصص دراسة تحليلية للدكتور محمد مطني أطروحة دكتوراه مصر جامعة القاهرة ص18.
3) المصدر نفسه ص165.
4) المصدر نفسه ص166.
5) ينظر: تفسير التحرير والتنوير محمد بن عاشور الدار التونسية للنشر ج 20 ص178.

6) سورة: الأعراف 158.
7) سور: الحج 27.
8) سورة: الدخان 49.
9) قصص الأنبياء لابن كثير، دار البيان العربي مصر ص406.
10) ينظر: تفسير القرآن لمحمد صالح العثيمين موقع العلامة العثيمين ج3 ص154.
11) سورة القصص دراسة تحليلية كتاب سبق ذكره ص171.
12) المصدر السابق ص 178.
13) المصدر السابق ص 203.
14) ينظر: المدهش لابن الجوزي دار الكتب العلمية بيروت ط الثانية 1985م تحقيق مروان قباني ص110.
15) ينظر: تفسير الطبري كتاب سبق ذكره ج19 ص 617.
16) ينظر: سورة القصص دراسة تحليلية كتاب سبق ذكره ص237.
17) ينظر: تفسير الطبري كتاب سبق ذكره ج19 ص524.
18) روح المعاني، دار إحياء التراث العربي بيروت ج20 ص112.
19) سورة: لقمان 18.
20) سور القصص دراسة تحليلية ص244.
21) ينظر: إبطال الحيل لابن بطة العكبري تحقيق زهير الشاويش المكتبي الإسلامي ط الثالثة ص10.
22) ينظر: تفسير الطبري كتاب سبق ذكره ج19ص 626.
23) لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت ط/الأولى ج14 ص76.
24) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تأليف ابن عطية ،دار الكتب العلمية بيروت 1993م ط/الأولى تحقيق عبد السلام عبد الشافي ج4 ص300.
25) كلمة معناها: شديد الحمرة. قال ابن الأعرابي: ثياب حمر. وقال الزجاج: صبغ أحمر. تاج العروس للزبيدي منشورات دار مكتبة الحياة بيروت – لبنان ج10ص145.
منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ج10 ص145.
26) وينظر: سورة القصص دراسة تحليلية كتاب سبق ذكره ص 250.
27) تفسير أبي السعود تأليف محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي بيروت ج7 ص26.
28) تفسير الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل تأليف الخازن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر مصدر الكتاب: موقع التفاسير http://www.altafsir.com ج5 ص113.
29) المحرر الوجيز لابن عطية كتاب سبق ذكره ج4 ص 301.

30) سورة القصص دراسة تحليلية كتاب سبق ذكره ص251.
31) تفسير ابن كثير دار الأندلس بيروت ط الخامسة ج5 ص 298.
32) سورة: التغابن آية 15.
33) سورة القصص دراسة تحليلية كتاب سبق ذكره ص 252.
34) التحرير والتنوير ج 20 ص185.
35) تفسير ابن كثير ج 5 ص302.
36) تفسير ابن أبي حاتم تأليف: عبد الرحمن بن محمد الرازي المكتبة العصرية لبنان تحقيق أسعد مجمد ج9 ص3022.
37) التفسير الكبير تأليف الفخر الرازي، دار الكتب العلمية بيروت ط/الأولى2000م ج25 ص18، وتفسير ابن كثير ج3 ص403، وتفسير الطبري ج20 ص122.
38) سورة القصص دراسة تحليلية كتاب سبق ذكره ص 261.
39) المصدر نفسه ص595.
40) سورة:الشعراء 128.
41) ينظر: المفصل في فقه الدعوة إلى الله تعالى أعدها علي بن نايف الشحود ص77، 219.
42) المصدر السابق ص37.
43) تفسير القرطبي دار الشام للتراث بيروت ج 13 ص313.
44) تفسير القرطبي ج 13 ص316.
45) سورة: الدخان 29.
46) ينظر: فقه الدعوة ج3ص38.
47) الحديث روي عن ابن عباس وأبي هريرة – رضي الله عنهما قالا خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكر الحديث ينظر: المطالب العالية لابن حجر العسقلاني دار العاصمة السعودية ط/الأولى 1419هـ تحقيق سعد بن ناصر الشتري ج10 ص187.
48) ينظر: موسوعة الدين النصيحة تأليف علي بن محمد الشحود ج1 ص199.
49) ينظر: المصدر نفسه ج1ص 279.
50) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف جار الله الزمخشري دار الفكر بيروت ج3 ص191.
51) ينظر: تفسير الطبري ج 20 ص116، وروح المعاني للألوسي كتاب سيق ذكره ج20 ص122.
52) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف علي بن أحمد الواحدي، دار القلم بيروت 1415هـ ط /الأولى تحقيق صفوان عدنان ج2 ص826، والتفسير الكبير للفخر الرازي ج25 ص17.

53) ينظر: التفسير الكبير ج25ص18، و الجامع لأحكام القرآن تأليف محمد القرطبي دار الشعب القاهرة ج 13ص 319.

54) ينظر: المفصل في فقه الدعوة إلى الله علي بن نايف الشحود ص57.

55) ينظر: قصص الأنبياء لابن كثير كتاب سبق ذكره ص 410.